الفصل الرابع

الوَحي

النبوة منحة إلهية[1]

النبوة منحة إلهية ، لا تنال بمجرد التشهي والرغبة ، ولا تنال بالمجاهدة والمعاناة ، وقد كَذَب الفلاسفة الذين زعموا أنَّ النبوة تنال بمجرد الكسب بالجدّ والاجتهاد ، وتكلّف أنواع العبادات ، واقتحام أشقّ الطاعات ، والدأب في تهذيب النفوس ، وتنقية الخواطر ، وتطهير الأخلاق ، ورياضة النفس والبدن[2] .

وقد بيّن الله في أكثر من آية أنَّ النبوة نعمة ربانية إلهية ، قال تعالى : ﴿ **أُولَئِكَ الَّذِينَ أَنْعَمَ اللهُ عَلَيْهِمْ مِنَ النَبِيِّينَ مِنْ ذُرِّيَّةِ آدَمَ وَمِمَّنْ حَمَلْنَا مَعَ نُوحٍ وَمِنْ ذُرِّيَّةِ إِبْرَاهِيمَ وَإِسْرَائِيلَ ، وَمِمَّنْ هَدَيْنَا وَاجْتَبَيْنَا** ﴾ « سورة مريم /٥٨ » وحكى الله قول يعقوب لابنه يوسف : ﴿ **وَكَذَلِكَ يَجْتَبِيكَ رَبُّكَ** ﴾ « سورة يوسف/٦ » ، وقال الله لموسى : ﴿ **إِنِّي اصْطَفَيْتُكَ عَلَى النَّاسِ بِرِسَالاتِي وَبِكَلَامِي** ﴾ « سورة الاعراف/١٤٤ » ، وقد طمع أميّة بن أبي الصلط في أن يكون نبيّ هذه الأمّة ، وقال الكثير من الشعر متوجها به إلى الله ، وداعيا إليه ، ولكنّه لم يحصل على مراده ، وصدق الله إذ يقول : ﴿ **اللَّهُ أَعْلَمُ حَيْثُ يَجْعَلُ رِسَالَتَهُ** ﴾ « سورة الأنعام/١٢٤ » ، ولذلك عندما اقْتُرِحَ أن يُخْتَار لأمر النبوة

---

(١) ذهبت المعتزلة إلى أن ارسال الرسل وانزال الكتب واجب على الله تعالى ، والحقُّ أن ذلك تفضل من الله تعالى على عباده ، ورحمة بهم ، والقول بالوجوب يتجه إذا قلنا أوجبه هو تعالى على نفسه « انظر لوامع الأنوار البهية ٢/٢٥٦ ، ٢٥٨).

(٢) لوامع الأنوار البهيّة (٢/٢٦٧).

والرسالة أحد الرجلين العظيمين في مكة والطائف عروة بن مسعود الثقفي أو الوليد بن المغيرة ، أنكر الله ذلك القول ، وبين أنَّ هذا مستنكر ، فهو الإله العظيم الذي قسم بينهم أرزاقهم في الدنيا ، أفيجوز لهم أن يتدخلوا في تحديد المستحقِّ لرحمة النبوة والرسالة ؟ ﴿ **وَقَالُوا : لَوْلَا نُزِّلَ هَذَا الْقُرْآنُ عَلَى رَجُلٍ مِنَ الْقَرْيَتَيْنِ عَظِيْمٍ ؟ ! أَهُمْ يَقْسِمُونَ رَحْمَةَ رَبِّكَ ! نَحْنُ قَسَمْنَا بَيْنَهُمْ مَعِيشَتَهُمْ فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا . .** ﴾ « سورة الزخرف/ ٣١ ـ ٣٢ » وسنبين في هذا الفصل الطريق الذي يصبح به الذين اختارهم الله أنبياء .

طريق إعلام الله أنبياءه ورسله

سمّى الله هذا الطريق وحيا ، قال تعالى : ﴿ إِنَّا أَوْحَيْنَا إِلَيْكَ كَمَا أَوْحَيْنَا إِلَى نُوحٍ وَالنَّبِيِّينَ مِنْ بَعْدِه ، وَأَوْحَيْنَا إِلَى إِبْرَاهِيمَ وَإِسْمَاعِيلَ وَإِسْحَاقَ ، وَيَعْقُوبَ وَالأَسْبَاطِ وَعِيسَى وَأَيُّوبَ وَيُونُسَ وَهَارُونَ وَسُلَيْمَان وآتَيْنَا دَاودَ زَبُوراً ﴾ « سورة النساء/١٦٣ » .

والوحي : الإعلام الخفيّ السريع مهما اختلفت أسبابه[1] ، فقد يكون بالإلهام كوحي الله إلى الحواريين : ﴿ وَإِذْ أَوْحَيْتُ إِلَى الْحَوَارِيِّينَ أَنْ آمِنُوا بِي وَبِرَسُولِي ﴾ « سورة المائدة/١١١ » وكوحي الله لأمّ موسى : ﴿ وَأَوْحَيْنَا إِلَى أُمِّ مُوسَى أَنْ أَرْضِعِيهِ ﴾ « سورة القصص/٧ » ويأتي بمعنى الايماء والاشارة ، فقد سمّى القرآن إشارة زكريا إلى قومه وحيا ﴿ فَخَرَجَ عَلَى قَوْمِهِ مِنَ الْمِحْرَابِ فَأَوْحَى إِلَيْهِمْ أَنْ سَبِّحُوا بُكْرَةً وعَشِيًّا ﴾ « سورة مريم/١١ » .

وأكثر ما وردت كلمة « وحي » في القرآن الكريم بمعنى إخبار واعلام الله من اصطفاه من عباده كل ما أراد إطلاعه عليه من ألوان الهداية والعلم ، بطريقة سرّية خفيّة ، غير معتادة للبشر .

---

(١) راجع فتح الباري ٩/١ ، المصباح المنير ٦٥١ ، ٦٥٢ .

مقامات وحي الله الى رسله

قال الله تعالى مبيِّنا هذه المقامات : ﴿ وَمَا كَانَ لِبَشَرٍ أَنْ يُكَلِّمَهُ اللَّهُ إِلاَّ وَحْياً أَوْ مِنْ وَرَاءِ حِجَابٍ ، أَوْ يُرْسِلَ رَسُولاً فَيُوحِيَ بِإِذْنِهِ مَا يَشَاءُ إِنَّه عَلَيٌّ حَكِيمٌ ﴾ « سورة الشورى/ ٥١ » .

فالمقامات ثلاثة :

الأولى : الإلقاء في روع النبيّ الموحى إليه ، بحيث لا يمتري النبيّ في أنّ هذا الذي ألقى في قلبه من الله تعالى ، كما جاء في صحيح ابن حبّان عن رسول الله ﷺ أنّه قال : « إنَّ روح القدس نفث في روعي أن نفسا لن تموت حتى تستكمل رزقها وأجلها ، فاتقوا الله ، وأجملوا في الطلب »[1] وذهب ابن الجوزي إلى أن المراد بالوحي في قوله ﴿ إلاّ وحيا ﴾الوحي في المنام[2] .

رؤيا الأنبياء

وهذا الذي فسَّر به ابن الجوزي المقام الأوّل داخل في الوحي بلا شكّ ، فإنّ رؤ يا الأنبياء حقٌّ ، ولذلك فإنَّ خليل الرحمن إبراهيم بادر إلى ذبح ولده عندما رأى في المنام أنّه يذبحه ، وعدّ هذه الرؤ يا أمرا إلهيا ، ، قال تعالى في إبراهيم وابنه اسماعيل : ﴿ فَلَمَّا بَلَغَ مَعَهُ السَّعْيَ ، قَالَ : يَا بُنَيَّ إِنِّي أَرَى فِي الْمَنَامِ أَنِّي

---

(١) انظر تفسير ابن كثير (٦/٢١٥) تفسير الآية (٥١) من سورة الشورى .

(٢) زاد المسير (٧/٢٩٧) .

أَذْبَحُكَ ، فَانْظُرْ مَاذَا تَرَى ، قَالَ يَا أَبَتِ افْعَلْ مَا تُؤْمَرُ ، سَتَجِدُنِي إِنْ شَاءَ اللهُ مِنَ الصَّابِرِينَ ، فَلَمَّا أَسْلَمَا وَتَلَّهُ لِلْجَبِينِ ، وَنَادَيْنَاهُ أَنْ يَا إِبْرَاهِيمُ قَدْ صَدَّقْتَ الرُّؤْيَا ، إِنَّا كَذَلِكَ نَجْزِي الْمُحْسِنِينَ ﴾ « سورة الصافات/١٠٢ - ١٠٥ » .

وفي الحديث الذي يرويه البخاري ومسلم عن عائشة - رضي الله عنها - قالت : « أوّل ما بدىء به رسول الله ﷺ من الوحي الرؤيا الصالحة في النوم ، وكان لا يرى رؤيا إلا جاءت مثل فلق الصبح »[1] .

المقام الثاني : تكليم الله لرسله من وراء حجاب :

وذلك كما كلّم الله تعالى موسى عليه السلام ، وذكر الله ذلك في أكثر من موضع في كتابه **﴿ وَلَمَّا جَاءَ مُوسَى لِمِيقَاتِنَا وَكَلَّمَهُ رَبُّهُ ﴾** « سورة الأعراف/١٤٣ » **﴿ فَلَمَّا أَتَاهَا نُودِيَ يَا مُوسَى ، إِنِّي أَنَا رَبُّكَ فَاخْلَعْ نَعْلَيْكَ إِنَّكَ بِالْوَادِ الْمُقَدَّسِ طُوى ، وَأَنَا اخْتَرْتُكَ فَاسْتَمِعْ لِمَا يُوحَى ، إِنَّنِي أَنَا اللهُ لَا إِلَهَ إِلا أَنَا فَاعْبُدْنِي ، وَأَقِمِ الصَّلَاةَ لِذِكْرِي ﴾** « سورة طه/١١ - ١٤ » وممن كلّمه الله آدم عليه السلام **﴿ قَالَ يَا آدَمُ أَنْبِئْهُمْ بِأَسْمَائِهِم . . . ﴾** « سورة البقرة/٣٣ » وكلّم الله عبده ورسوله محمدا ﷺ عندما عرج به إلى السماء .

المقام الثالث : الوحي إلى الرسول بواسطة الملك :

وهذا هو الذي عناه الله - تعالى - بقوله : **﴿ أَوْ يُرْسِلَ رَسُولاً فَيُوحِيَ بِإِذْنِهِ مَا يَشَاءُ ﴾** « سورة الشورى/٥١ » وهذا الرسول هو جبريل ، وقد يكون غيره وذلك في أحوال قليلة[2] .

---

(١) جامع الأصول ١٢/٣٧ .

(٢) راجع في هذا كتابنا : عالم الملائكة ص ٤٠ .

صفة مجيء الملك إلى الرسول

بالتأمل في النصوص في هذا الموضوع نجد أنّ للملك ثلاثة أحوال[1] :

الأول : أن يراه الرسول ﷺ على صورته التي خلقه الله عليها ، ولم يحدث هذا لرسولنا ﷺ إلا مرتين .

الثاني : أن يأتيه الوحي في مثل صلصلة الجرس ، فيذهب عنه وقد وعى عنه الرسول ﷺ ما قال .

الثالث : أن يتمثل له الملك رجلا فيكلّمه ويخاطبه ويعي عنه قوله ، وهذه أخف الأحوال على الرسول ﷺ ، وقد حدث هذا من جبريل في اللقاء الأول عندما فجأه في غار حراء .

بشائر الوحي

كان الرسول ﷺ قبل معاينته للملك ، يرى ضوءاً، ويسمع صوتا ، ولكنه لا يرى الملك الذي يحدث الضوء ، ولا يرى مخاطبه والهاتف به ، روى مسلم في صحيحه عن ابن عباس قال : « مكث رسول الله ﷺ بمكة خمس عشرة سنة ،

---

(١) راجع : المصدر السابق .

يسمع الصوت ويرى الضوء سبع سنين ولا يرى شيئاً ، وثمان سنين يوحى إليه ، وأقام بالمدينة عشرا »[1] .

قال النووي : « يسمع الصوت ويرى الضوء » ، قال القاضي : « أي صوت الهاتف من الملائكة ، ويرى الضوء أي نور الملائكة ، ونور آيات الله ، حتى رأى الملك بعينيه ، وشافهه بوحي الله »[2] .

أثر الملك في الرسول

من المزاعم التي يدعيها المكذبون بالرسل أن ما كان يصيب الرسول ﷺ إنّما هو نوع من الصرع ، أو اتصال من الشياطين به ، وكذبوا في دعواهم ، فالأمران مختلفان ، فالذي يصيبه الصرع يصفرُّ لونه ، ويخفُّ وزنه ، ويفقد اتزانه ، وكذلك الذي يصيبه الشيطان ، وقد يتكلم الشيطان على لسانه ، ويخاطب الحاضرين ، وعندما يفيق من غيبوبته لا يدري ولا يذكر شيئا ممّا خاطب به الشيطان الحاضرين على لسانه ، أمّا الرسول ﷺ فإنَّ اتصال الملك به نماء في جسده ، واشراق في وجهه ، ثمَّ إن الجالسين لا يسمعون كلاما ، إنما يسمعون دويّا كدويّ النحل عند رأسه[3] ، ويقوم الرسول ﷺ بعد ذلك وقد وعى كلّ ما أخبر به الملك ، فيكون هو الذي يخبر أصحابه بما أوحي إليه .

فقد أخبرتنا عائشة ـ رضي الله عنها وعن أبيها ـ أنَّ الرسول ﷺ كان ينزل عليه الوحي في اليوم الشديد البرد ، فيفصم عنه ، وإن جبينه ليتفصد عرقا[4] .

وأخبرتنا أنَّ ناقته ـ عندما كان يوحى إليه وهو فوقها ـ فيضرب حزامها وتكاد

---

(١) انظر النووي على مسلم (١٥/١٠٤) . وهذا الذي ذكره ابن عباس خلاف المحفوظ في مقدار المدة التي كان يوحى إليه فيها بمكة ، فالمحفوظ انه أوحي اليه في سنّ الأربعين وهاجر وعمره ثلاث وخمسون سنة ، فتكون المدة ثلاث عشرة سنة .

(٢) النووي على مسلم ١٥/١٠٤ .

(٣) رواه الترمذي (انظر جامع الأصول ١٢/٤١) .

(٤) صحيح البخاري ، كتاب بدو الوحي (انظر فتح الباري ١/١٨) .

تبرك به من ثقله فوقها[1] ويذكر أحد الصحابة أنَّ فخذه كانت تحت فخذ النبي ﷺ فأنزل إليه ، فكادت فخذ النبي ﷺ حين الإنزال إليه ترض فخذ الصحابي[2] .

وهذا يعلى بن أميّة يحدثنا عن مشاهدة تنزّل الوحي على الرسول ﷺ وقد كان يتمنى قبل ذلك أن يراه في تلك الحال ، قال : « فأدخلت فإذا هو محمّر الوجه ، يغطُّ كذلك ساعة ، ثمَّ سُرِّي عنه »[3] .

---

(١) أشار الى هذا البيهقي في الدلائل عن عائشة (انظر فتح الباري ١/٢١) .

(٢) رواه البخاري ، صلاة ١٢ ، جهاد ٣١ ، والنسائي جهاد ٤ وأحمد (٥/١٨٤) .

(٣) حديث يعلى في البخاري وغيره انظر صحيح البخاري ، كتاب فضائل القرآن (فتح الباري ٩/٩) .